

المكتبة الصغيرة



الامام الشافعي

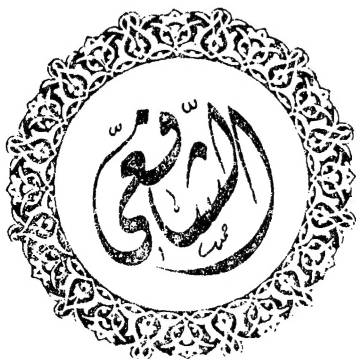
الفقيه
الأدب



أحمد العربي



الإمام



الفقيه .. الأديب

أحمد العزني

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

رمضان ١٣٩٨ هـ

أغسطس ١٩٧٨ م

العناوين من اعداد الخطاط السعودي : حمد كليب الحارثي

تصميم الغلاف : اعداد شركة تهامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

أشعر بضالة حقاً .. وأنا أكتب هذه الكلمة .. أكتبها تمهيداً
بين يدي هذا الكتاب .. لا تعريفاً .. أكتبها لكي أذكر قصتي
معه ، ومع مؤلفه العلامة الجليل ..

أشعر بتلك الضالة .. كما شعرت بها كثيراً في صدر صباي ،
حينما كنت أقعد مقاعد الدرس أمام أستاذي الكبير السيد أحمد
العربي ..

ذلك تاريخ من التاريخ ..

فقد كنت قبل أن ينعقد العقد السادس الهجري من هذا
القرن ، طالباً من طلبة المعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة ..
وكان مدير هذا المعهد هو الأستاذ الجليل السيد أحمد العربي ..
كان أستاذي الجليل - ولا يزال - يتميز بشخصية فذة ..
لا أدري كيف أصفها ؟

هل أقول : انها شخصية نفّاذة ؟ ربما كان هذا الوصف ،
من وجهة نظري ، أصدق الأوصاف لهذه الشخصية ..

وبرغم أن أستاذنا السيد أحمد العربي ، لا يتصف من حيث
المظهر بطول فارط .. ولا بعرض سميك .. بل على العكس

تماماً ، فانه نازل الجسم نحولاً ملفتاً للنظر .. الا انه يسيطر
بشخصيته النفذاة على طلبته .. بل على طلبة مدرستين كبيرتين
هما أكبر مدارس المملكة العربية السعودية آنذاك .. في حقل
الدراسة الرسمية ، وهما المعهد العلمي السعودي ، ومدرسة
تحضير البعثات .. فقد كان مديرهما معاً .. حيث أطلق عليه
لقب (مدير المعهدين) .. وكان من بين طلبته من يكاد يقاربه
في السن ..

ولم يبهرونا السيد أحمد العربي بشخصية الحازمة النظامية
الدقيقة .. فحسب .. أو بحسن تصرفه ، وبعد نظره ، وعمق
ادراكه للأمور .. فقط .. بل لقد كان هناك شيء هام آخر ، هو
علمه الواسع ، وأدبه الجم ، وإطلاعه الكبير ..

كان يبدو لنا - نحن طلبته - شخصية متكاملة .. فهو مهيب
حازم ، بازع الحديث ، حسن الصوت ، متناسق الملامح ، بعيد
النظر ، وهو مع ذلك أديب ، عالم ، شاعر ..

انه بكل ذلك يعدّ قدوةً مثلى ..
ولقد كان لنا نعم القدوة حقاً ..

ترجع فصاحته ، وحسن التزامه للغة العربية ، ودقة
معلوماته في التراث العربي .. الى درعيمته .. فهو خريج (دار
العلوم) بمصر ، فقد كان من أولى بعثات المملكة العربية
السعودية الى القاهرة ..

اذن .. فقد كنا نعجب بأستاذنا ايما اعجاب ..
وكان مما يضاعف هذا الاعجاب ، في أوساط الطلبة المعنيين

بالأدب والشعر .. ان أستاذنا شاعر أديب .. يسهم فى المناسبات
بشعره وأدبه ..

ولمن شاء أن يرجع الى (وحي الصحراء) ليرى بعض آثاره
.. أو الى الصحف التى كانت تصدر فى أواخر العقد الخامس
وما بعده من هذا القرن الهجري ليقف على مساهماته الأدبية
والشعرية ..

وعدا كل ذلك .. فقد كان مع سزمه ، يشعرا بأبوته ..
وبأننا نجد فى صدره الرحب ، قلباً كبيراً يتفهم - بعمق -
مشاكلنا .. فهو يقوّم المعوج برفق وتؤدة وحكمة .. ويشجع
الأسوياء على السير قدماً فى الطريق المستقيم .. أما النوابغ
والناهبون ، فهو كثير الحذب عليهم ، شديد العناية بهم .. لا يدخر
وسعاً فى حفزهم الى الأمام .. ولعل الأدباء من الطلبة ، والشعراء
منهم كانوا يلقون منه رعاية خاصة ، قد لا تدانيها رعاية أخرى
.. ولا غرو فهو أديب شاعر .. شديد الولع بتعويد الألسنة
والأقلام على اللغة العربية ناصعة سليمة .. حتى انه ليكاد يلتزم
اللغة الفصحى فى حديثه كله .. على شتى المستويات ..

ولقد كنت منذ عيت باصدار هذه السلسلة من كتيبات
(المكتبة الصغيرة) أطلع بشوق كبير الى أن أحمل أستاذنا
الجليل على أن يسهم فيها ، طامعاً بالدرجة الأولى فى شعره ، فان
لأستاذنا الجليل شعراً يتسم بالنصاعة ، والسلاسة ، وصدق
الماطفة ، منه ، على سبيل المثال قصيدته فى العيد ، التى عنوانها
(أيها العيد) وقد فضلت أن أورها كاملة ، لما اشتملت
عليه من معان نبيلة :

أيها العيد كم تثير شجوني وتورّي من وجدي المكنون
فلكم خلف ثوبك الفاتن الخلا ب من لوعة وشجو كمين

★ ★ ★

أيها العيد كم تخطيت قوماً هم من البؤس في شقاء قطين
لم تزدهم أيامك الغر الا حسرة في تأوه وأنين
أبصروا المترفين فيك وللثعمرى عليهم رواء يسر ولين
كل رهط يفتن في المأكّل المـلـذـوذ واللبس الأنيق الثمين
لا يبال ما أنفقتـه يداه في المـلـاهي من طارف ومصون
واذا ما دعاه للبرر داع فهو في المكرمات جد ضنين

★ ★ ★

أيها العيد رب طفل يعاني فيك من بؤسه عذاب الهون
هاجـه تـربـه بـمـلبـسـه الزا هي، وكم فيه للصبا من فتون؟
فرنا نحوه بطرف كليل ليس يقوى على احتمال الشجون
ثم ولي والحزن يفري خـشـاه مستغيثاً بعطف أم حنون
وجثا ضارعاً اليها يناجيها بدمع من مقلتيه هتون
ويعها ما عسى تنال يداها وهي خلو الشمال صفر اليمين
كلما تستطيعه هبرات من عيون مقرحات الجفون

أيها الناس انما العيش ظل ذائل والحياة كالمنجنون
فلكم قوَض الزمان صروحا وصروف الزمان شتى الفنون
رب ذى نعمة وجاء عريض صار ذا شقوة وهم مبين

★ ★ ★

أيها الموسرون رفقا وعظفا وحنانا بالبائس المحزون
ربما بات جاركم طاويا جوعا وبتم تشكون بشم البطون
ربما ظل طيلة العيد يستخفى من الصحب قابعا كالسجين
أي فضل للعيد يستأثر المثلون فيه بالمظهر المضمون ؟
والفقير الكئيب يرجع منه بنصيب المرزء المغبون

★ ★ ★

ليت شعري متى يكون لنا عيد بشير بالطالع الميمون ؟
فيشيع السرور في كل بيت ويواسى فؤاد كل حزين
قد لعمري أنى لنا ان نرى العيد مشاعا وقرة للعيون

ومن روائعه قصيدة حيا فيها الطلبة السعوديين الأوائل
الذين تخرجوا من ايطاليا في الطيران ، وهي بعنوان (ولقد
بدأنا اليوم نشعر بالحياة وبالنشور ..) وفيها يقول :

بالجد يكتسب العلا لا بالأمانى والغرور
لو أن بالآمال والأ قوال تنقاد الأمور

لم 'يلف في الجَلِّي لنا ندّ ، ولم يذكر نظير
فلقد ملأنا الوهم آ مالا تضيق بها الصدور
ولقد ملأنا الصحف أقو ألا تضيق بها السطور
ولقد وقفنا والزمان وكل ما فيه يسير
ولقد هجعنا والحيا ة وكل ما فيها يمور
ولقد بدأنا اليوم نشعر بالحياة وبالنشور

★ ★ ★

عجباً أنحن سلائل الا عراب معجزة العصور
عجباً أنحن بنو أساتذة الحضارات الصدور
أنكون أول مبدعى الطيرا ن آخر من يطير ؟
أسفاً وقد يجدى التأسف حين يحتث الشعور
ولعل في هذا الشعو ر بوارق العهد المنير ؟

ولكن محاولاتي في أن ينشر أستاذنا شيئاً من أشعاره في هذه
السلسلة .. لم تجد ..

ولكنني لم أياس .. حاولت من جديد أن أحصل على شيء من
بحوث أستاذنا ، وهي فيما أعتقد غير قليلة ، بينها المحاضرات
التي كان يلقيها عبر حياته في التدريس ، حتى تفضل فأظفرني
ببداية البحث عن الامام الشافعي ..

ولا أكتّم أستاذنا الجليل ، ولا أكتّم القراء ، انني سررت اذ ظفرت بهذا البحث عن الامام الشافعي بالذات .. ذلك لأن من الأمانى التى أتطلع اليها أن تتناول هذه السلسلة (المكتبة الصغيرة) تقديم دراسات ميسرة عن الأئمة الأربعة لتعريف قرائها بهم .. حقاً ان الكتب المؤلفة عنهم كثيرة .. وحقاً ان الطلبة في مدارسهم وفى كتبهم المدرسية ، يقرأون سيرهم .. ولكنى أحرص فى هذه السلسلة ، على تقديم هذه السيرة فى منهج جديد .. وسط بين الايجاز والاسهاب ، وان تلقى الأضواء على جوانب جديدة من حيواتهم .. أو ما يعبر عنه بالجانب الآخر ..

ولقد وفق أستاذنا الجليل السيد أحمد العربي .. كل التوفيق فى تحقيق هذا الغرض .. فقد أوجز سيرة الشافعي العظيم .. وأبرز جوانب القدوة فى حياته .. ثم تناول الجانب الأدبي .. أعنى شاعرية الشافعي ، وحسه الأدبي .. ولغته الرفيعة .. وهو الجانب الذى قلما يتناوله كاتبو سيرته .. ولذلك يعتبر هذا الكتيب ملخصاً جيداً لسيرة الشافعي الفقيه ، والشافعي الأديب ..

أما أسلوب أستاذنا السيد أحمد العربي ، فلا أمتدحه وهو ماثل أمام القراء بكل نصاعته ، وحسن تأتية .. وبيانه السهل الممتنع ..

واننى لأسأل الله مثل هذا التوفيق ، لتقديم سيرة حياة الأئمة الثلاثة الباقين بحيث تتناول أيضاً الجوانب المتعددة لحيواتهم .. والله الموفق ، وهو من وراء القصد &

(الطائف ٢٤ رمضان ١٣٩٧ هـ)

عبد العزيز الرفاعي

الإمام الشافعي

سِيرَتُهُ وَعِلْمُهُ

بسم الله نستعينه ونستهديه ونصلي ونسلم على
خاتم النبيين وقدوة الهداة المصلحين سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه ، والسائرين على سنته ونهجه .

الامام الشافعي :

علم من أعظم أعلام الاسلام ومنار من أعلى
منارات الهدى والرشاد ، وعبقري من ألمع عباقرة
العلم والمعرفة ، ومثل رائع للشباب الكادح
الطموح ، بلغ من العلم أبعد غاياته ، وحاز من
الشرف والمجد أسمى درجاته . ذلك هو الفتى
المطلبى القرشي محمد بن ادريس بن العباس بن
شافع بن السائب ، ينسب الى جده شافع وينتهى
نسبه الى عبد مناف بن قصي ، حيث يجتمع بالنبي
صلى الله عليه وسلم فى جده عبد مناف وقد لقي جده
شافع النبي صلى الله عليه وسلم ونال شرف صحبته ،
وكذلك جده السائب ، ومما يدل على سمو منزلة
هذه الأسرة فى قریش ان جده السائب كان صاحب
راية بنى هاشم يوم بدر ، فأسر وفدى نفسه ثم

أسلم ، فقيل له : لِمَ لَمْ تسلم قبل أن تفدى نفسك ؟
فقال ما كنت لأحرم المؤمنين من مطمع لهم في ، ويروى
أن السائب اشتكى من مرض ألمّ به - فقال عمر
رضي الله عنه : اذهبوا بنا نعود السائب فانه من
مصاصة قريش كما يؤكد هذه المنزلة في صدر
الاسلام ، ان عبد الله بن السائب أخا شافع كان والياً
على مكة . وأم الشافعي يمنية من الأزد . وقد دلت
تربيتها وحسن توجيهها للشافعي على ما كانت تتمتع
به من حصافة ونباهة وقدرة على الاضطلاع بمهام
الأمومة على أفضل وجه ، وحسبنا القصة الطريفة
الآتية ، دليلاً على ما كانت تمتاز به هذه المرأة
الجليلة من قوة الشخصية وحسن الادراك وبراعة
المنطق :

يروى أن أم الشافعي شهدت عند قاضى مكة هي
وامرأة أخرى ، فأراد القاضى أن يفرق بين المرأتين
فقالت له أم الشافعي : ليس لك ذلك ، لأن الله
سبحانه وتعالى يقول : « أن تضل احداهما فتذكر
احداهما الأخرى » ، فرجع القاضى لها عن رأيه .

مولد الشافعي ونشأته :

كانت مكة موطن أسرة الشافعي ، الا أن والده ادريس هاجر الى فلسطين ومعه زوجه أم الشافعي لحاجة ألبأته الى ذلك . وفي غزة احدى مدن فلسطين الشهيرة ولد الشافعي رضي الله عنه سنة ١٥٠ خمسين ومائة من الهجرة . وبعد ولادته بقليل توفي والده وقامت أمه بحضنته خير قيام . ولما بلغ من العمر سنتين حملته أمه الى مكة لينشأ بين قومه وعشيرته ، وفي أم القرى تلقى تعليمه الأولي مبتدئاً بحفظ القرآن الكريم ، وقد لقي في المراحل الأولى من تعليمه من العناء والمجهود ما كان أبلغ محك لعلو همته ومضاء عزيمته ، كما كان أقوى حافز لتتضح مواهبه ، مما جعل من الفتى المكي خير أسوة لطلاب العلم والمعرفة وأروع مثل للشبان الطامحين الى المجد والرفعة . وفيما يلي صور موجزة لبعض ما عاناه الشافعي في طلب العلم وما بذله في هذه السبيل من جهود وما كان يتحلى به من المعية وهمة قعساء :

روي أنه لما أسلموه الى المعلم ما كانوا يجدون
الأجرة التي يتقاضاها المعلم من أمثاله ، فكان يقصّر
في تعليمه ، وكان الشافعي يتلقف ما يعلمه المعلم
للصبيان ، ثم اذا قام المعلم من مكانه أخذ الشافعي
يعلم الصبيان ما تلقفه ، فنظر المعلم فرأى الشافعي
يكفيه من أمر الصبيان أكثر من الأجرة التي كان
يطمع فيها ، فترك طلب الأجرة منه ، واستمر
الشافعي على هذه الحال الى أن حفظ القرآن الكريم .
ويروى عن الشافعي أنه قال : لما ختمت القرآن
دخلت المسجد - يعنى المسجد الحرام - فكنت
أجالس العلماء ، وأحفظ الحديث ، والمسألة وكان
منزلنا بشعب الخيف ، وكنت فقيراً لا أملك ما أشتري
به القراطيس ، فكنت أخذ العظم وأكتب فيه .
وروى صاحب معجم الأدباء عن الشافعي في هذا
الصدد ما خلاصته : لما خرجت من الكتاب كنت
أتلقط الخزف (الفخار) والدفوف (الجلود) وكرب
النخل وأكتاف الجمال ، أكتب فيها الحديث ثم يقول :
وكان لأمي حباب (جرار) فملأتها أكتافاً وخزفاً
وكرباً .. مملوءة حديثاً ثم انى خرجت عن مكة

فلزمت هذيلاً في البادية ، أتعلم كلامها ، وأخذ طبعها وكانت أفصح العرب ، فبقيت فيهم أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم ، فلما رجعت الى مكة جعلت أنشد الأشعار وأذكر الآداب .. والأخبار ، وأيام العرب . فمر بي رجل من الزبيرين من بني عمر فقال لي : يا أبا عبد الله : عز عليّ ألا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء ، فقه ، فتكون قد سدت أهل زمانك . يقول الشافعي : فقلت : فمن تقصد ؟ - يعنى ممن يؤخذ عنهم الفقه - فقال لي : مالك بن أنس سيد المسلمين يومئذ . قال الشافعي : فوقع في قلبي (أي أنه استحسّن هذا الرأي) ، فعمدت الى الموطأ - موطأ الامام مالك ، أحد أمهات كتب السنة المعتبرة - فاستعرتة من رجل بمكة فحفظته في تسع ليال ظاهراً - عن ظهر قلب - وبعد ذلك أخذ الشافعي يستعد لرحلته الى الامام مالك وذلك ما سنذكره بعد أن نورد جملة نلم فيها بثقافة الامام الشافعي ، المتعددة النواحي والمصادر ، قبل توجهه بكليته الى الفقه .

لقد مر بنا آنفاً أخذه الفصحى عن هذيل ، وقد بلغ فيها الذروة ، كما شهد له بذلك أئمة اللغة وجهابذتها .

قال صاحب وفيات الأعيان : كان الشافعي كثير المناقب جم المفاخر منقطع القرين اجتمعت فيه من العلوم بكتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة رضي الله عنهم وآثارهم واختلاف أقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة العربية والشعر - حتى ان الاصمعي مع جلالة قدره في هذا الشأن قرأ عليه أشعار الهذليين - ما لم يجتمع في غيره . ونقل ابن عبد البر عن الزعفراني انه قال : ما رأيت أحداً قط أفصح ولا أعلم من الشافعي كان أعلم الناس وأفصح الناس ، وكان يقرأ من كل الشعر فيعرفه ، ما كان الا بحرأ . وعن ابن هشام انه قال : كان الشافعي حجة في اللغة .

ولقد ذكر المرحوم العلامة الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه (تمهيد لتاريخ الفلسفة

الاسلامية) نبذة نفيسة عن ثقافة الشافعي الواسعة
الآفاق ، المتعددة الفنون والمعارف ، أنقلها بشيء
من الإيجاز فيما يلي :

« وقد تفقه الشافعي أول ما تفقه على أهل
الحديث من علماء مكة كمسلم بن خالد الزنجي
وسفيان بن عيينة ، ثم ذهب الى امام أهل الحديث
مالك بن أنس في المدينة فلزمه ولقي من عطفه
وفضله ما جعله يحبه ويحله .. على أن نشأة
الشافعي لم تكن من كل وجه نشأة أهل الحديث ولا
استعداده استعدادهم . لقد توجه في أول أمره الى
درس اللغة والشعر والأدب وأخبار الناس ولم يقطع
صلته بهذه العلوم حين وصل حبله بأهل الحديث
الذين كانوا لا يرونها من العلم النافع » .

ثم يقول بعد ذكره لبعض الشواهد على ذلك :
« وكان الشافعي بطبعه نهماً في العلم شديد
الرغبة فيه ، يلتمس كل ما يجده من فنونه . وقد
ذكر من ترجموا له انه اشتغل بالفراسة حين ذهب
الى اليمن وعالج التنجيم والطب ، وربما كان

درسهما في احدى رحلاته الى العراق ، حيث كان التنجيم يعتبر فرعاً من فروع العلوم الرياضية ، وكان الطب فرعاً من العلم الطبيعي .. ثم يقول :

وكان الشافعي مغرماً بالرمي والفروسية ، ولم يكن في كهولته يأنف من الوقوف عند مهرة الرماة ، يدعوا لهم ويمدحهم بالمال ... ثم نقل عن شمس الدين الصفدي في صفة الشافعي قوله : « وكان مقتصرأً في لباسه ، يتختّم في يساره ، وكان ذا معرفة تامة في الطب والرمي ، وكان أشجع الناس وأفرسهم ، يأخذ باذنه واذن الفرس وهو يعدو » .

وذكر الشيخ مصطفى عبد الرازق أيضاً في ترجمة الامام الشافعي : انه كان متأثراً في خلقه وخلقته بالرياضة البدنية التي شغف بها منذ الصغر فكان جسمه جسم الرياضيين وخلقته خلق الرياضيين » . وقد روي عن الامام الشافعي أنه كان يحدث عن طفولته فيقول : « وكانت نهمتي في شيئين : في الرمي ، وطلب العلم ، فنلت من الرمي

حتى كنت أصيب من عشرة عشرة . وفي رواية من
«شرة تسعة . وسكت عن العلم فقال بعض من كان
يستمع اليه : أنت والله في العلم أكثر منك في
الرمي » .

ومما يشهد لهذه النزعة والهواية الرياضية لدى
الشافعي ما ذكره ابن عبد البر عن المزنى من قوله :
« خرجت مع الشافعي يوماً الى الأكوام فمر بهدف
فاذا برجل يرمي بقوس عربية ، فوقف عليه
الشافعي ينظر ، وكان حسن الرمي ، فأصاب
بأسهم . فقال له الشافعي : أحسنت بارك الله فيك .
ثم قال لي : أمعك شيء ؟ قلت معي ثلاثة دنائير ،
قال : اعطه اياها واعتذر عني أنى لم يحضرني
غيرها » .

رحلته الى المدينة :

قدمنا آنفاً نصيحة الرجل الزبيري للشافعي بأن
يتوجه الى الفقه بعد أن بلغ في اللغة العربية
والفصاحة تلك المنزلة الرفيعة مع ما وهبه الله اياه

من ذكاء والمعينة . وفيما يلي نذكر ما أجاب به الشافعي الرجل الزبيري ، وما اتخذته بعد ذلك من خطوات في هذه السبل نقلا من معجم الأدباء بشيء من التصرف :

تقدم لنا أن الشافعي استعار كتاب الموطأ ، وحفظه عن ظهر قلب وفيما يلي يروي لنا الشافعي الخطوات التي اتخذها في سبيل لقاء مالك والأخذ عنه قال : ثم دخلت الى والي مكة وأخذت كتابه الى والي المدينة ، والي مالك بن أنس ، قال : فقدمت المدينة فأبلغت الكتاب الى والي ، فلما ان قرأ قال : يا فتى : ان مشي من جوف المدينة الى جوف مكة حافياً أهون علي من المشي الى باب مالك بن أنس ، فلست أرى الذل حتى أقف على بابه . فقلت : أصلح الله الأمير : ان رأي الأمير يوجه اليه ليحضر . فقال : هيهات ، ليت اني اذا ركبت أنا ومن معي وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا . قال : فواعدته العصر وركبنا جميعاً ... فتقدم رجل فقرع الباب ، فخرجت الينا جارية سوداء . فقال

لها الأمير : قولى لمولاك انى بالباب . قال : فدخلت فإبطأت ثم خرجت فقالت : ان مولاي يقرؤك السلام ويقول : ان كانت مسألة فارفعها فى رقعة يخرج اليك الجواب ، وان كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس ، فانصرف . فقال لها : قولى له : ان معي كتاب والى مكة اليه فى حاجة مهمة . قال فدخلت وخرجت وفى يدها كرسى فوضعتة ثم اذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار .. فرفع اليه الوالى الكتاب . فلما بلغ الى هذه الجملة : « ان هذا رجل من أمره وحاله كذا وكذا . » - يعنى الشافعي ورغبته فى التلقى عنه - فتحدثه وتفعل وتصنع . رمى الكتاب من يده ثم قال : سبحان الله ؟ أوصار علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يؤخذ بالوسائل ؟ قال الشافعي : فرأيت الوالى وقد تهيب أن يكلمه ، فتقدمت اليه وقلت : - أصلحك الله - انى رجل مطلبى ومن حالى وقصتى ... فلما ان سمع كلامى نظر اليّ ساعة ، وكانت لمالك فراسة : فقال : ما اسمك ؟ قلت محمد .. فقال لى : يا محمد اتق الله ، واجتنب المعاصى ، فانه سيكون لك شأن

من الشأن . ثم قال : نعم وكرامة اذا كان غدا
تجيء ويجيء من يقرأ لك . قال : فقلت أنا أقوم
بالقراءة . قال ففدوت اليه وبدأت أقرأه ظاهراً
- غيباً - والكتاب في يدي فكلما تهيبت مالكا وأردت
أن أقطع ، أعجبه حسن قراءتي واعرابي - أي
افصاحي وعدم الحنى - فيقول : يا فتى زد . حتى
قرأته في أيام يسيرة ثم أقمت بالمدينة ، حتى توفي
مالك بن أنس ثم خرجت الى اليمن فارتفع لى بها
الشأن .

ذكرت هذه القصة على ما فيها من بعض الطول
لما فيها من صور رائعة لهذا الفتى المطلبى الطموح
تمثل علو همته وصبره وجراته وألمعيته ، كما
تصور لنا ما اتّصف به امام دار الهجرة مالك بن
أنس من جلال ووقار وتكريم للعلم واعزاز لسنة
رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد صدق من قال فيه من أهل المدينة :

يأبى الجواب فما يراجع هيبة
والسائلون نواكس الأذقان

أدب الوقار وعز سلطان التقى
فهو المطاع وليس ذا سلطان

ورحم الله الجرجاني اذ يقول :
ولو ان أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه في النفوس تعظما

رحلته الى اليمن :

قال الشافعي : « لما مات مالك . كنت فقيراً ،
فاتفق ان والى اليمن قدم المدينة فكلمه بعض
القرشيين ان اصحبه ، فذهبت معه واستعملنى في
أعمال كثيرة ، وحمدت فيها والناس أثنوا علي » .

وقد أخذ الشافعي عن جماعة من أهل اليمن ..
ويقولون : ان الشافعي ، جمع كتب الفراسة من
اليمن واشتغل بها حتى مهر فيها .

وارتفع شأن الشافعي باليمن .. ثم ان الحساد
سعوا به الى هارون الرشيد ، وكان باليمن واحد من

قواده ، فكتب اليه يخوفه من العلويين . وذكر في كتابه ، ان معهم رجلا يقال له محمد بن ادريس الشافعي ، يعمل بلسانه مالا يقدر المقاتل عليه بسيفه ، فان أردت أن يبقى الحجاز عليك فاحملهم اليك .

وحمل الشافعي من الحجاز مع قوم من العلوية تسعة وهو العاشر الى بغداد ، ثم لما ادخلوا على الرشيد سألهم وأمر بضرب أعناقهم فضربت أعناق التسعة ثم لما قدم الشافعي قال : يا أمير المؤمنين لست بطالبي ولا علوي ، وانما ادخلت في القوم بغياً علي . وانما أنا رجل من بني عبد المطلب بن عبد المناف ، ولي مع ذلك حظ من العلم والفقه .. وقد استطاع الشافعي بلباقته وفصاحته أن يقنع الرشيد ببراءته ، فأطلقه الرشيد وأكرمه .

الشافعي بين مكة وبغداد :

تقدم لنا ان الشافعي أخذ عن محمد بن الحسن صاحب الامام أبي حنيفة في احدى رحلاته الى بغداد،

وفي أثناء اقامته في بغداد كان يناظر العراقيين في
فقههم ، ويعتبر نفسه تلميذاً لمالك . الا أنه لما اطلع
في العراق على آراء غير آراء أستاذه مالك ، وعلى
منهاج في الفقه غير منهاج مالك - أخذ يدرس
ويوازن بين هذه الآراء والمناهج المختلفة . وعندما
عاد الى أم القرى ، عكف على هذه الموازنة بجوار
بيت الله الحرام ، الى ان خرج على الناس بمذهب
مستقل به ، مغاير لمذهب مالك، ومذهب أبي حنيفة،
كما خرج على الناس بقواعد الاستنباط وهو
ما عرف بعد بعلم أصول الفقه الذي 'يعزى اليه
استنباطه ، ولقد أحسن الأستاذ محمد أبو زهرة في
وصفه لهذه المرحلة من حياة الشافعي العلمية في
كتابه « تاريخ المذاهب الاسلامية » وفيما يلي ننقل
بشيء من الايجاز ما ذكره في هذا السياق :

قال : « مكث الشافعي في مكة يدرس ويفحص
ويلقى على تلاميذه علماً لم يألفوه من قبل ، وهو
لا يخرج عن الدراسة الفقهية ، في ظل القرآن والسنة
النبوية . وفي هذه الأثناء كان يلقاه العلماء من كل

فج عميق ، فى ايام الحج ، فجاءه العراقيون وغيرهم .
وكانت اقامته بمكة نحو تسع سنين فى هذه المرة ،
ولا بد أن ينشر ما وصل اليه فى كل البلاد الاسلامية ،
وخصوصاً ما وضعه من مناهج للاستنباط الفقهي .
وليس ثمة الا مكان ينبثق منه نور العلم عاماً
مشرقاً . وهو قصبة الدولة الاسلامية « بغداد » وقد
ألفها وألفته ، وعرفها وعرفته .

ولذلك رحل الى بغداد سنة ١٩٥ هـ .

هنالك فى بغداد استرعى نظر كل العلماء فيها
واحتفت به التلاميذ . ولم يستكبر علماء بغداد عن
أن يكون فيهم تلاميذ له ، فقد تتلمذ له أحمد بن حنبل
الذى لقيه بمكة من قبل ، وعجب من عقله وفكره .
وأخذ عنه اسحاق بن راهويه ، وهو فى سن قريبة من
سنه . وأشباههم ، غير التلاميذ الذين أخذوا يتلقون
عنه ، ويتخرجون عليه ، وكان يجيب الجميع
ويعجبون باجابته ، لأنه قد أتى بعلم لم يكن على
منهاج ما درسوا ، ولأنه يتحلى بصفات لم تكن فيمن
سبقوه ، ولكل فضله .

أما المنهاج فقد جاءهم بعلم الأصول الذي هو منهاج الاستنباط ، يبينه بالتفصيل .. وأما ما تحلى به من صفات ، فهو الفصاحة والبيان والقدرة على المناظرة والمجادلة . فقد كان فصيح العبارة ، قوي التأثير في بيانه ، حتى لقد قال فيه بعض معاصريه : « انه خطيب العلماء » . وفي هذه المقدمة الى بغداد - أملى كتبه التي أسماها الكتب البغدادية ، ففيها كتابه الأم ويسمى المبسوط ، وهو عدة كتب شملت أكثر ما اثر عنه في الفروع .

وكذلك أملى كتابه في أصول الفقه وهو الذي يسمى الرسالة ، رواهما عنه الزعفراني .

وبهذا نشر علمه في كل بلاد المشرق مما وراء العراق ، عن أولئك التلاميذ الذين كانوا يحتفون به في درسه .. »

نكتفي بهذا القدر مما ذكره أبو زهرة عن اقامة الشافعي ببغداد ومغادرته اياها الى مكة ثم عودته اليها ثانياً واقامته بها اقامة قصيرة وارتحاله منها الى مصر .

وفيما يلي نذكر بشيء من التفصيل رحلته الى
مصر :

رحلته الى مصر :

قدم الشافعي الى مصر سنة تسع وتسعين ومائة ،
في أول خلافة المأمون وكان سبب قدومه الى مصر ان
العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى بن عبد الله
ابن العباس ، استصحبه فصحه ، وكان العباس هذا
خليفة لأبيه عبد الله على مصر ، ولم يزل الشافعي
بمصر الى أن ولي السرى بن الحكم البلخي مصر
واستقامت له وكان يكرم الشافعي ويقدمه ولا يؤثر
أحداً عليه ، وكان الشافعي محبباً الى الخاص والعام ،
لعلمه وفقهه وحسن كلامه وأدبه وحلمه ...

واذا صح ان هذا الوالى العباسي هو الذى
استصحبه الى مصر ، فقد حقق له أمنية كانت تتوق
اليها نفسه ، كما يدل على ذلك تمثله بالبيتين
التاليين حين أراد الخروج الى مصر :

لقد أصبحت نفسى تتوق الى مصر
ومن دونها قطع المهامه والقفرة
فوالله ما أدري ألفتوز والغنى
أساق اليها أم أساق الى القبر ؟

وقد أورد صاحب معجم الادباء فى سياق البيتين
السابقين - عن خروج الشافعى - الى مصر القصة
التالية نذكر خلاصتها لطرافتها ولا نجزم بصحتها :
قال : فخرج فقطع عليه الطريق فدخل بعض المساجد
وليس عليه الا ثياب رثة فلم يلتفت اليه أحد .
فقال :

عليّ ثياب لو يباع جميعها
بفلس لكان الفلس منهن أكثر
وفيهن نفسى لو يقاس ببعضها
نفوس الورى كانت أجل وأكبرا
وما ضر نصل السيف اخلاق غمده
اذا كان عضباً أين وجهته فرى
يقول مصطفى عبد الرازق : « اذا كان الشافعى

قد خرج الى مصر يلتمس نشر مذهبه فهو انما
أراد أن يلتمس لأرائه ميداناً جديداً بعد أن أدرك
النصر في الحجاز والعراق . وقال الربيع : سألني
الشافعي عن أهل مصر فقلت : هم فرقتان ، فرقة
مالت الى قول مالك ، وناضلت عنه ، وفرقة مالت
الى قول أبي حنيفة وناضلت عنه ، فقال : أرجو أن
أقدم مصر ان شاء الله فأتيهم بشيء أشغلهم عن
القولين جميعاً . قال الربيع : ففعل ذلك والله حين
قدم مصر . »

وقال النووي : وصنف كتبه الجديدة كلها بمصر ،
وسار ذكره في البلدان ، وقصده الناس من الشام
واليمن والعراق وسائر النواحي والأقطار ، للتحقق
عليه ، والرواية عنه ، وسماع كتبه وأخذها عنه
وسار أهل مصر وغيرهم وابتكر كتباً لم يسبق اليها ،
ومنها أصول الفقه .

وقد أقام الشافعي بمصر الى أن وافته المنية سنة
٢٠٤ هـ وهو في الرابعة والخمسين من عمره وكان
في آخر عمره شديد العلة بالبواسير .

ويروى في سبب موت الشافعي : انه كان بمصر رجل من أصحاب مالك بن أنس ، يقال له فتيان ، فيه حدة وطيش ، وكان يناظر الشافعي كثيراً ويجتمع الناس عليهما ، فتناظرا يوماً في مسألة .. فظهر عليه الشافعي في الحجاج - انتصر عليه في المناظرة - فضاق فتيان بذلك ذرعاً فشتم الشافعي شتماً قبيحاً ، فلم يردّ عليه الشافعي حرفاً ومضى في كلامه ، فرفع ذلك رافع الى والي مصر فطلبه وعزره ، فحققت فتيان على الشافعي فلقية ليلاً فضربه بمفتاح حديد فشجّه فتمرض الشافعي الى ان مات . وقد علق الشيخ مصطفى عبد الرازق على هذا الخبر في ترجمته للامام الشافعي بقوله :

« لم تقتل الشافعي شجة فتيان المزعومة ، انما قتل الشافعي ما بذله من جهد عنيف في السنين الأربعة التي أقامها بمصر ، ما بين تأليف وتدريس ، وسعي في بث مذهبه ، ومدافعة كيد خصومه . هذا الى مرضه المنهك .. »

وقال المزنّي : دخلت على الشافعي في مرضه الذي

مات فيه ، فقلت : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت
من الدنيا راحلاً ، وللأخوان مفارقاً ، ولكأس المنية
شارباً ، وعلى الله جل ذكره وارداً . ولا والله
ما أدري . روعي تصوير الى الجنة فأهنيها ، أو الى
النار فأعزيها . ثم بكى وأنشأ يقول :

فلما قسا قلبي وضافت مذاهبي
جعلت رجائي نعو عفوكم سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته
بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل
تجود وتعفو منة وتكرما
فلولاك لم يغدر بابلis عابد
كيف وقد أغوى صفيك آدماء

علم الشافعي وفقهه :

لقد مرت بنا شذرات عن علم الشافعي وفقهه ،
وفيما يلي نقتبس من كتاب الشيخ محمد أبو زهرة

بشيء من الايجاز ، نبذة مما ذكره في هذا الصدد :
قال : « لقد شغل الشافعي الناس بعلمه وعقله
وبلاغته ، شغلهم في بغداد عندما كانت تعقد بينه
وبين فقهاء المناظرات ، وهو شاب يتلقى عن
محمد بن الحسن ، وشغل العلماء الذين كانوا
يجيئون الى البيت الحرام .. حاجين ، ومتزودين
بزاد من علم الرسول ، وأحاديث يتلقونها عن بقية
التابعين بها ، وشغل بغداد مرة ثانية بالثمرات
العلمية التي وصل اليها ، وهو عاكف في البيت
الحرام ، يضع القواعد ويجمع الأصول ، ويدرس
المذاهب دراسة مقارنة لم يسبق بها . ثم لما جاء الى
مصر شغل الناس بعلمه الذي لم يعرفوا له نظيراً
فيما درسوا وان كان لكل فضله وسبقه .

ولقد انطلق بالثناء عليه شيوخه الذين تلقى
عنهم ، وقرناؤه الذين ناظروه ثم كانوا له
كالتلاميذ ، وتلاميذه الذين حفظوا للأجيال علمه
الغزير ... ثم قال :

« والحقيقة انه اوتى من أسباب العلم ما يجعل

له هذه المنزلة السامية ، فقد أوتي علم القرآن الكريم ، ففقه معانيه ، وأدرك كثيراً من أسرارهِ ومراميهِ ، وقد قال بعض تلاميذه : « إذا أخذ الشافعي في التفسير كان كأنه شاهد التنزيل . » - وأوتي علم الحديث ، فروى أحاديث من كانوا بمكة من بقية التابعين ، وروى أحاديث الإمام مالك ، فقرأ عليه الموطأ الذي يعدّ أول مدون كامل في الحديث . وأوتي العلم العراقي راوياً له عن العراقيين في الفترة التي التقى فيها بالإمام محمد بن الحسن . وأوتي مع هذا فقه الرأي وضبط قواعد الفقه ، فوضع ضوابط القياس وضوابط النسخ .. »

وضع الشافعي لعلم أصول الفقه :

نقتبس فيما يلي فقرات مما ذكره الشيخ مصطفى عبد الرازق تحت هذا العنوان :

قال : « إذا كان الشافعي هو أول من وجّه الدراسات الفقهية الى ناحية علمية ، فهو أيضاً أول من وضع مصنفاً في العلوم الدينية الإسلامية ، على

منهج علمي ، بتصنيفه في أصول الفقه . قال الرازي : اتفق الناس على أن أول من صنّف في هذا العلم – أي علم أصول الفقه – الشافعي وهو الذي ميز بعض أقسامه من بعض ، وشرح مراتبها في القوة والضعف ... »

وقال الرازي أيضاً : « وأعلم ان نسبة الشافعي الى علم الأصول كنسبة « أرسططاليس » الى علم المنطق ، وكنسبة « الخليل بن أحمد » الى علم العروض ... »

المذهب الشافعي وانتشاره في العالم الاسلامي :

كان الشافعي في أول أمره يعد نفسه تلميذاً لمالك ، ومتبعاً لمذهبه ، وما زال كذلك الى أن قدم الى بغداد ، واتصل بأصحاب أبي حنيفة ، وأخذ عن محمد بن الحسن الشيباني ، واطلع على طريقة العراقيين ، فاقتبس من ذلك أحسنه ، وأضافه الى ثروته الحجازية في اللغة والأدب ، والحديث ، وطريقة الحجازيين في الاستنباط : « ومنذ ان عاد الشافعي

الى مكة بعد اقامته في بغداد ، أخذ ينهج منهاجاً
فقهيّاً ، ليس فيه تابعاً لشيخه مالك رضي الله عنه ،
ولا لمحمد بن حسن الشيباني الذي كان يحمل فقه
العراقيين ، وقد اتجه كما أشرنا من قبل الى دراسات
كلية مع دراسة الفروع ... وقد استقبل الناس
ذلك النوع من العلم على انه فتح جديد في الدراسات
الفقهية لم يسبق به الشافعي ... » أبو زهرة .

ثم لم يلبث الشافعي ان أعلن مذهبه الجديد في
بغداد سنة ١٩٥ هـ ودعا اليه فتبعه فيه بعض
أصحابه البغداديين . ولما لم يجد الشافعي لمذهبه في
العراق النجاح الذي كان ينشده ، لمزاحمة الحنفية
له ، ولما لهم من جاه وسلطان ، تحول الى مصر ،
وأقام بها نحو أربع سنوات أملى فيها كثيراً من كتبه
وانتشر مذهبه بمصر بعد أن ابتداءً بنشره بالعراق ،
ومن العراق انتقل الى خراسان وما وراء النهر .
ومع ان المذهب الحنفي كان مذهب الدولة العباسية
السائد بين رعاياها المؤيد بسلطانها ، كان المذهب
الشافعي ينازعه السلطان في الشعب ، واستمر

سلطانه في مصر حتى بعد استيلاء الفاطميين عليها .
وقد امتد سلطانه الى الشام واليمن وفارس وغيرها
ولم يزل يمتد وينتشر حتى بلغ في أقصى الشرق ،
بلاد الملايو وجاوة (اندونيسيا) وبعض بلاد الهند
وما جاورها من الأقطار والشعوب الاسلامية ،
وأصبح بذلك أحد المذاهب الاسلامية الأربعة التي
يدين بها المسلمون في معظم أرجاء العالم الاسلامي
ويحتكمون الى قوانينها ودساتيرها .

آثار الشافعي :

كتب الأستاذ (أحمد أمين) في كتابه « ضحى
الاسلام » بحثاً مطولاً عن آثار الشافعي .. وكتبه ،
نقتبس منه بايجاز الفقرات التالية للامام بأهم هذه
الآثار :

قال : « من أهم ما وصل إلينا من أعمال
الشافعي رسالته في أصول الفقه ... وقد تكلم فيها
فيما يحتاج اليه المجتهد ازاء القرآن من العام
والخاص ، والناسخ والمنسوخ ، وتكلم في موقف

المجتهد من الحديث ناسخه ومنسوخه ... كما تكلم على الاجماع والقياس ... الى ان قال : وهو بهذا أول من وضع خطة في البحث في أصول الفقه جرى عليه كل من أتى من علماء المذاهب الأخرى . مستشهداً بقول الرازي : « واعلم ان نسبة الشافعي الى علم الأصول كنسبة أرسططاليس الى علم المنطق ، وكنسبة الخليل بن أحمد الى علم العروض ... »

ولما كان كتاب « الرسالة » - أول كتاب صنفه الشافعي في علم أصول الفقه ، فقد علق عليه الأستاذ (أحمد أمين) - بقوله : « وأعلم ان الشافعي » رضي الله عنه « صنف كتاب الرسالة ببغداد ، ولما رجع الى مصر أعاد تصنيف كتاب الرسالة ، وفي كل واحد منهما علم كثير ، والناس وان أطنبوا بعد ذلك في علم أصول الفقه ، الا أنهم كلهم عيال على الشافعي فيه ، لأنه هو الذي فتح هذا الباب والسبق لمن سبق » .

أما كتاب « الأم » - وهو أكبر أثر للشافعي كما

يقول أحمد أمين ، فقد جاء في تعليقه عليه ما خلاصته : « وقد ثار الخلاف حديثاً في مصر هل الأم كتاب ألفه الشافعي أو ألفه البويطي ؟ وبعد ان أشار الى دواعي الخلاف قال : « فالظاهر انها امال أملاها الشافعي في حلقة ، كتبها عنه تلاميذه وادخلوا عليها تعليقات من عندهم ، واختلفت رواياتهم بعض الاختلاف ... على كل حال بين أيدينا مجموعة في سبعة أجزاء ، أغلبها من كلام الشافعي رواها عنه تلميذه وادخل فيها بعض تعليقات ، أفردا وبينها حتى لا تلتبس بكلام الشافعي :

ومجموع ذلك هو الذي أطلق عليه «كتاب الأم» وقد بوّب على أبواب الفقه ، كما فعل مالك في الموطأ ، ولكن فيه فصول في أصول الفقه ..

وقد أملت هذه الأبواب في مصر ، والعلماء يقسمون فقه الشافعي الى مذهبين : قديم وجديد فأما القديم فهو ما كتبه وقال به في العراق ، وأما الجديد فهو ما كتبه وقال به في مصر :

« ذلك انه لما جاء مصر عدل عن بعض أقوال له
كان قالها من قبل .. فغير ذلك من فقه الشافعي في
القول بالمذهب الجديد » .

الى أن يقول : وفي « الأم » مصداق لجميع
ما ذكرنا عن الشافعي ، فهو فيه فصيح العبارة ،
قوي الأداء ، تشوب عبارته بلاغة البادية وفصاحتها ،
وقوة القرشية وإيجازها .. ثم يقول : وفي الكتاب
تظهر قوة الشافعي في الجدل ، فأسلوب الكتاب كله
تقريباً أسلوب جدلي ، حتى ليفترض مجادلاً فيرد
عليه ، ثم يعترض فيجيب .. الى أن يقول : وعلى
الجملة فالكتاب ثروة كبيرة من حيث دلالاته على
مناحي الشافعي في الاجتهاد وعلى فقهه وعلى ما كان
من اثر مصر في القول بالمذهب الجديد » .

الشافعي المربي

الشافعي المربي ومنهجه التربوي :

لقد أولع الشافعي بالعلم والتعليم منذ حداثة سنه ، وقد مرّ بنا حديث ممارسته لتعليم الصبيان في الكتاب ما كان يتلقفه من المعلم مما جعل المعلم يعتمد عليه في ذلك ويعفيه من الأجرة التي كان يتقاضاها من أمثاله . وروى أنه كان يقرئ الناس في المسجد الحرام وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وكان حسن الصوت يشجى السامعين بقراءته ويبكيهم . وفيما يلي نبذة مقتبسة مما ذكره أبو زهرة عن انصراف الشافعي الى العلم :

قال : « منذ نعومة أظفاره اتجه الى العلم وتوافرت له أسبابه ، فقد كانت اقامته بمكة وبها بقية من التابعين ، وفيها مدرسة عبد الله بن عباس ، الذى اختار جوار البيت الحرام مستقراً له ومقاماً - ذريعة لأن يصل في نشأته الأولى الى أعلى ما يصل اليه من هو في مثل سنه .

ولما شدا وترعرع اتجه الى عالم دار الهجرة
فلازمه تسع سنين هي أخصب زمن لانتاج الشيخ ..
وأخصب سن للتلميذ ، ولم ينصرف الى العمل في غير
العلم الا قليلا ، عاد بعده الى العلم مشغوقاً به مدركاً
أن فيه كل الشرف ، وأخذ يدرّس علم القرآن
والسنة ، واختلاف الفقهاء ويضع الموازين بضبطها
وتعرف الحق من بينها ، واتخذ مجلس درسه ابتداء
في البيت الحرام ، حتى اذا امتلأ الوعاء ذهب الى
بغداد ، واتخذ فيها كرسيّاً آخر لدرسه ، ثم لما ضاق
ببغداد ، وتبرم بمناهج علمية لا يرتضيها يمم وجهه
ناحية مصر الطيبة ، التي صارت من بعد مأوى
العلماء من الشرق والغرب ، عندما ادلهمت الخطوب
بأهل الاسلام ، واضطر العلماء الى الرحلة . حيث
الأمن ، فلم يجدوه الا في مصر ، وبذلك كانت حياته
كلها للعلم بعقل عبقرى ولسان بليغ مصور .

وقد تخرج على الامام الشافعي في كل من مكة
وبغداد ومصر طائفة كبيرة من العلماء الأجلاء
الذين حملوا فقهه وعلمه وأدبه .. وساهموا

مساهمة جلية في خدمة مذهبه ونشره في أنحاء العالم الاسلامي .

أما منهجه التربوي فقد كان الشافعي يدعو الى ورود مناهل العلم والمعرفة على اختلاف فنونها ، منوهاً بقيمة كل علم وأثره وفي ذلك يقول : « من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن نظر ، في الفقه نبه قدرته ، ومن نظر في اللغة رق طبعه ، ومن نظر في الحساب جزل رأيه ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه » .

ولقد كان هو نفسه مثالا فذاً لهذه الثقافة المتعددة النواحي ، وكانت دروسه خير مثال لذلك ، حدث الربيع بن سليمان المرادي ، صاحب الشافعي وراوي كتبه قال : « كان الشافعي رحمه الله يجلس في حلقة اذا صلى الصبح فيجيئه أهل القرآن ، فاذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه تفسيره ومعانيه ، فاذا ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر ، فاذا ارتفع الضحى تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والنحو

والشعر ، فلا يزالون الى قرب انتصاف النهار ، ثم ينصرف رضي الله عنه » وقال بعض أصحابه : « ما رأيت مجلساً قط أنبل من مجلس الشافعي ، كان يحضره أهل الحديث ، وأهل الفقه ، وأهل الشعر ، وكان يأتيه كبار أهل اللغة والشعر .. » .

وقال النووي : « ان الشافعي رحمه الله مكّنه الله تعالى من أنواع العلوم ، حتى عجز لديه المناظرون من الطوائف وأصحاب الفنون ، واعترف بتبريزه وأذعن الموافقون والمخالفون في المحافل الكثيرة المشهودة ، المشتعلة على أئمة عصره .. » .

لقد كان الشافعي مبرزاً في ميدان المناظرات واستطاع أن ينشر من آرائه واجتهاداته ويكسب الأنصار والمؤيدين لمذهبه بفضل ما أوتيته من الفصاحة والبلاغة وقوة البيان ، ونفاذ البصيرة ، حتى لقد اشتهر بين علماء عصره بناصر السنة ، كما لقبه بعضهم بخطيب العلماء . وكثيراً ما كان يلقي الأسئلة على طلابه ويحاورهم لاقناعهم بوجهة نظره ، وربما لجأ الى استثارة المنافسة بينهم بجائزة

يسميتها لهم شحذاً لهممهم واذكاءاً لنشاطهم ... قال الحميدي : « كان الشافعي ربما يلقي علي وعلى ابنه المسألة فيقول : « أيكما أصاب فله دينار » .. ومما يدل على فسحه المجال لطلابه للمناقشة والمناظرة ما مر بنا من وصف الربيع لحلقات درس الشافعي حيث قال : « فاذا ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر » .

ولقد أثرت عنه أقوال كثيرة في الحض على طلب العلم والاشادة بفضله من ذلك قوله :

« من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، وقوله : « ما تقرب الى الله بشيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم ، وقوله : « من لا يحب العلم لا خير فيه ولا يكون بينك وبينه صداقة ولا معرفة » وقوله : « ليس العلم ما حفظ ، انما العلم ما نفع » ومن كلماته الرائعة في الاشادة بفضل العلم قوله : « كفى بالعلم فضيلة ان يدعيه من ليس فيه ، ويفرح به اذا نسب اليه ، وكفى بالجهل شيئاً ان يتبرأ منه من هو فيه ، ويغضب اذا

نسب اليه » . ومن مآثور كلماته الدالة على تفانيه في نشر العلم ، وحرصه على انتفاع الناس بعلمه ولو لم ينسب اليه قوله : « وددت ان الناس يفهمون ما في كتبي من معانى الكتاب والسنة وينشرون ذلك وان لم ينسبوه الي » .. ومما يدل على شدة اخلاصه في دروسه ومناظراته ، وان هدفه الأول والأخير هو الوصول الى الحق والصواب ولو على لسان خصمه ، قوله : « ما ناظرت أحداً قط ، الا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان وما ناظرت أحداً الا ولم أبال أن يبين الله الحق على لساني أو لسانه » .

بهذه الروح المثالية وبهذه الهمة والاخلاص بلغ الشافعي ما بلغ من الجلالة والعظمة ونال ما نال من المجد والسؤدد ، ولقد ضرب رحمه الله تعالى بذلك أروع الأمثلة وأسناها لطلاب العلم والمعرفة ، وكان رضي الله عنه من أبرز أئمة المسلمين علماً وأدباً وخلقاً ومن أعظم رواد الهداية والارشاد .

★ ★ ★

أخلاق الشافعي وبعض ملامح شخصيته :

وصف الشافعي بعض أصحابه فقال : « كان طويلاً سائلاً الخدين ، قليل لحم الوجه ، خفيف العارضين ، طويل العنق ، طويل القصب (عَظْم العضد والفخذ والساق) ، آدم ... حسن الصوت ، حسن السميت ، عظيم العقل ، حسن الوجه ، حسن الخلق مهيباً فصيحاً » .

وكان محبباً الى كل من كان في وقته من الفقهاء ، والنبلاء ، والأمراء ، كلهم يجلس الشافعي ويعظمه . وكان مقتصرأ في لباسه ، وكان مجلسه مصوناً عن اللغظ « عن التهذيب للنووي بتصرف » وفيما يلي نذكر بشيء من الايجاز ، اضمامة من أخلاقه وشمائله :

واذا كانت المروءة من أجمع الصفات لمكارم الأخلاق ، فلقد كانت من أبرز خلائق الشافعي في سيرته ومعاملاته كما أشاد بها في كثير من مواقفه ، ومن أقواله المأثورة في ذلك قوله : « لو علمت ان

شرب الماء البارد ينقص من مروءتى ما شربته » ،
وقوله : « المروءة عفة الجوارح عما لا يعنيه »
وقوله : « أصحاب المروءات فى جهد » وقوله : « لو
كنت اليوم ممن يقول الشعر رثيت المروءة » .
ولعل الشافعي هو الذى أوحى الى الشاعر المتأخر
قوله ، وان بالغ فيه كثيراً وأساء الظن بالناس
جميعاً حيث قال :

مررت على المروءة وهي تبكي

فقلت علام تنتعب الفتاة ؟

فقالت كيف لا أبكي وأهلى

جميعاً دون خلق الله ماتوا ؟

ومن الشواهد على كمال التزام الشافعي بالمروءة
ورعايته لها الحكاية الآتية :

قال المزني : كنت عند الشافعي يوماً ودخل عليه
جار له خياط ، فأمره باصلاح أززاره فأصلحها
فأعطاه ديناراً ، فنظر اليه الخياط وضحك ، فقال
له الشافعي : خذه فلو حضرنا أكثر منه ما رضىنا
لك به ، فقال الخياط : انما دخلت لأسلم عليك .

فقال الشافعي : فأنت اذا زائر وضعيف ، وليس من المروعة أن يستخدم بالزائر ولا بالضعيف .

أما الحكاية الثانية فهي مثل رائع للمروعة والوفاء وحسن الرعاية لحق الصديق والتجافى عن الخداع والمجاملة الكاذبة :

« جاء رجل الى الشافعي فقال له : أصلحك الله - صديقك فلان عليل ، فقال الشافعي : والله لقد أحسنت الي ، وأيقظتني لمكرمة ، ودفعت اعتذاراً يشوبه الكذب ، ثم قال : يا غلام هات السبتية (هي نعال دبغت فلانت) ، ثم قال : للمشي على الحفاء ، على علة الوجاء (الوجاء من وجأه باليد والسكين : ضربه) في حر الرمضاء ، من ذى طوى ، أهون علي من الاعتذار الى صديق يشوبه الكذب . ثم انشأ يقول :

أرى راحة للحق عند قضائه

ويثقل يوماً ان تركت على عمـد

وحسبك حظاً ان ترى غير كاذب

وقولك : لم أعلم ، وذلك من جهـد

ومن يقض حق الجار بعد ابن عمه
وصاحبه الأدنى على القرب والبعد
يعش سيداً يستعذب الناس ذكره
وان نابه حق أتوه على قصد

ومن الحكايات الدالة على كرم الشافعي واكباره
للمروءة وأهلها ، هذه الحكاية :

عن الربيع بن سليمان يقول : « مر الشافعي
يوماً بالخدائين فسقط سوطه من يده ، فقام رجل
منهم فأخذ السوط ومسحه بيده ودفعه إليه ، فقال
له : مه ، أي شيء عملت ؟ آثرتني على نفسك ،
كيف أودى شكرك ؟ ثم تنحى وضرب بيده الى كفه
أو جيبه ، فأخرج منه دنائير لا أدرى خمسة أو عشرة
أو أكثر ، وأكبر ظني عشرة ، وقال لي : ادفعها إليه
واعتذر عني عنده ، فانه لم يحضرني غير هذا في
هذا الوقت » .

على ان الشواهد على كرمه وسخاء نفسه مما
لا يتسع المقام لذكرها وحسبنا أن نضيف الى ما تقدم

النبذة التالية : قال الحميدي : « قدم الشافعي رحمه الله من صنعاء الى مكة بعشرة آلاف دينار ف ضرب خبائه خارجاً من مكة ، فكان الناس يأتون يسلمون عليه ، فما برح حتى فرقها كلها » .

وقال البويطي : « قدم الشافعي مصر ، وكانت زبيدة ترسل اليه برزم الثياب والوشي ، فيقسمها بين الناس ، وقال بعض أصحابه : كان الشافعي من أجود الناس وأسخاهم كفاً ، كان يشتري الجارية الصنائع ، التي تطبخ وتعمل الحلواء ، ويقول لنا : تشهوا ما أحببتم ، فقد اشتريت جارية تحسن أن تعمل ما تريدون ، فيقول بعض أصحابنا : اعمل اليوم كذا وكذا ... »

وهكذا كانت سماحة الشافعي ومكارمه تجعل من منزله كنفاً لأصحابه ينعمون فيه بالغذاء الحسي الشهوي الى جانب الغذاء الروحي الممتع .

الصدقة في نظر الشافعي :

لقد مر بنا نموذج رائع من وفاء الشافعي لأحد أصدقائه ، وفيما يلي نذكر جملة من الأقوال

المأثورة عن الشافعي في هذا المجال ، قال رحمه الله :
« من صدق في أخوة أخيه ، قبل الله ، وسد خلله ،
وغفر زلله » وقال : « ليس سرور يعدل صحبة
الاخوان ، ولا غم يعدل فراقهم » . وقال : « لا تقصر
في حق أخيك اعتماداً على مودته » وقال : « من وعظ
أخاه سرّاً فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية
فقد فضحه وشانه » .

ولقد خبر الشافعي الناس ، وعرف الكثير من
طباعهم وأخلاقهم وعلم ألا سبيل الى رضائهم ولا
خير في التماذي في مخالطتهم ، ولا في التجافي عنهم ،
وانما الخير في الاعتدال بين الانبساط اليهم ،
والانقباض عنهم ، ولذا أوصى الربيع بقوله :
« يا ربيع ، رضاء الناس غاية لا تدرك ، فعليك
بما يصلحك فالزمه ، فانه لا سبيل الى رضائهم ،
والانبساط الى الناس مجلبة لقرناء السوء ،
والانقباض عنهم مكسبة للعداوة وكن بين المنقبض
والمنبسط » .

ولقد كان الشافعي يربى تلاميذه ومريديه على

مكارم الأخلاق بسيرته ونصائحه التي كان يتخولهم بها ، فقد كان مجلسه مصوناً عن اللفظ والصخب ، وكان يترفع عن النزول الى مستوى من يسوّل له طيشه أن يتناول عليه بما لا يليق من الكلام وكان يقابل ذلك بالاعراض عنه كما مر بنا من اعراضه عن فتیان عندما تناول عليه وآذاه . ومن أقواله المأثورة في الحث على تنزيه السمع وصيانة اللسان من الخنى والسفه قوله : نزهوا أسماعكم عن سماع الخنى ، كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به ، فان المستمع شريك القائل ، وأن السفیه ينظر الى أخبث ما في وعائه ، فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم » .

نكتفى بهذه الأمثلة من أخلاق الشافعي وأقواله المأثورة في مكارم الأخلاق ، لننتقل الى الحديث عن أدب الشافعي وحسن بيانه .



السائغى .. اللؤوب
نثره وسعره

أدب الشافعي .. نثره وشعره :

تقدم لنا كثير من الشواهد على فصاحة الشافعي وبلاغته ، وسنورد فيما يلي بعض الشواهد والنماذج المؤيدة لذلك :

قال ابن هشام : « جالست الشافعي زماناً فما سمعته تكلم بكلمة الا اذا اعتبرها المعبر ، لا يجد كلمة في العربية أحسن منها » وعن الزعفراني أنه قال : « كان قوم من أهل العربية يختلفون (أي يترددون) الى مجلس الشافعي معنا ، ويجلسون ناحية ، فقلت لرجل من رؤسائهم : انكم لا تتعاطون العلم ، فلم تختلفون معنا ؟ قالوا : نسمع لفة الشافعي ، أي انهم يحضرون مجالس الشافعي ودروسه لسماع لغته ، اعجاباً بفصاحته .

ولقد وصف الشيخ أبو زهرة فصاحة الشافعي وبلاغته قلماً ولساناً وصفاً دقيقاً جامعاً نقتبس منه الفقرات الآتية : « كان الشافعي قوي البيان ،

واضح التعبير ، بيّن اللقاء ، أوتي مع فصاحة
لسانه وبلاغة بيانه ، وقوة جنانه ، صوتاً عميق
التأثير ، يعبر بنبراته ، كما يوضح بعباراته ... »
وقد روي عن بعض تلاميذه انه قال : ما رأيت
أحداً الا وكتبه أكبر من مشاهدته ، الا الشافعي ،
فان لسانه أكبر من كتبه ، واذا كانت كتب
الشافعي على أحسن ما تكون عليه الكتب من جودة
تعبير وحسن تصوير للفكرة ، فكيف تكون حال
مشاهدته ؟ وهي أقوى أداء ، وأكمل اشارة ، وأحلى
عبارة . ولقد بلغ من اجادته للبيان أنه قال فيه
اسحاق بن راهويه : (انه خطيب العلماء) .

ولقد كان ميدان المناظرات من أقوى الميادين
التي ظهرت فيها بلاغة الشافعي وسحر بيانه ، وقوة
منطقه والتفوق على خصومه فقد يكون من المستحسن
أن نذكر احدى مناظراته الشهيرة كنموذج لهذا
اللون من الجدال والحوار ، وما يتجلى فيه من قوة
الحجة وبراعة الاستدلال نذكرها ملخصة من معجم
الأدباء لياقوت :

تناظر الشافعي واسحاق بن راهويه الخراساني ،
وكان أحد العلماء المبرزين في الفقه والمناظرة وكان
موضوع المناظرة كراء بيوت أهل مكة ، وكان اسحاق
يميل الى الرأي القائل بجواز سكنى بيوت مكة
بدون كراء ، فانبرى له الشافعي في هذه المناظرة
يحاوره ويجادله بقوة المنطق وحسن البيان واقامة
الدليل من كتاب الله وسنة رسوله : استهل الشافعي
مناظرته بقوله : قال الله عز وجل : « للمفقر
المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم » نسب الدار
الى المالكين أو الى غير المالكين . قال اسحاق : الى
المالكين . قال الشافعي : قوله عز وجل أصدق
الأقويل . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه
فهو آمن » أنسب رسول الله صلى الله عليه وسلم
الدار الى مالك أو الى غير مالك ؟ قال اسحاق : الى
مالك . فقال الشافعي وقد اشترى عمر بن الخطاب
دار الحجامين فأسكنها ، وذكر له جماعة من أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتروا دور مكة ،
وجماعة باعوها . قال اسحاق : قال الله عز وجل :

« سواء العاكف فيه والباد » فقال الشافعي :
اقرأ أول الآية : فقال : « والمسجد الحرام الذى
جعلناه للناس ، سواء العاكف فيه والباد »
قال الشافعي : والعاكف يكون فى المسجد ، ألا
ترى قوله تعالى : «للطائفين والعاكفين» والعاكفون
يكونون فى المساجد ، ألا ترى قوله عز وجل : «وأنتم
عاكفون فى المساجد » فدل ذلك أن قوله عز
وجل : « سواء العاكف فيه والباد» فى المسجد خاص ،
فأما من ملك شيئاً فله أن يكرى وأن يبيع .

وهكذا استطاع الشافعي أن يفهم خصمه بقوة
الحجة وحسن البيان .

وان الشواهد من آثار الشافعي وأقواله على
فصاحته وبلاغته أكثر من أن نحيط بها فى هذا
السياق وحسبنا من تلك الأقوال والحكم المنشورة فى
كتب الأدب وأسفار البيان ان نقتبس منها الشذرات
التالية بالاضافة الى ما تقدم منها :

وعظ الشافعي بعض اخوانه فقال : « يا أخى
ان الدنيا دحض مزلة ، ودار مذلة ، عمرانها الى

خراب صائر ، وساكنها للقبور زائر ، شملها على
الفرقة موقوف ، وغناها الى الفقر مصروف .
الاكثر فيها اعسار ، والاعسار فيها يسار . فافزع
الى الله ، وارض برزق الله تعالى . ولا تستلف من
دار بقائك ، في دار فنائك فان عيشك فيء زائل ،
وجدار مائل . أكثر من عملك ، وقصر من أملك .

وقال له رجل أوصني ، فقال : « ان الله تعالى
خلقك حرأ ، فكن حرأ كما خلقك » .

وقال : « عاشر كرام الناس تعش كريماً ، ولا
تعاش اللئام فتنسب الى اللؤم » .

وقال : « لا تبذل وجهك الى من يهون عليه
ردك » . وقال : « يا ربيع : لا تتكلم فيما لا يعينك ،
فانك اذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها » .

وقال : « التواضع من أخلاق الكرام ، والتكبر
من شيم اللئام » .

وقال : « أربعة أشياء قليلها كثير ، العلة والفقر
والعداوة والنار » .

وقال : « الآمال قطعت أعناق الرجال ، كالسراب
خان من رآه وأخلف من رجاه » .

وقال : « غضب الاشراف يظهر في أفعالها ،
وغضب السفهاء يظهر في ألسنتها » .

وقال : « من صدق الله نجا ، ومن أشفق على دينه
سلم من الردى ، ومن زهد في الدنيا قرت عيناه بما
يراه من ثواب الله تعالى غدا » .

نكتفى بهذا القدر من روائع حكم الشافعي
وأقواله المأثورة ، لننتقل الى الحديث عن شعره .

شعر الشافعي :

لئن كان الشعر مرآة ما تنطوى عليه نفس
الشاعر من مشاعر وأحاسيس ، وصدى لما يختلج
بين جوانحه من خلجات وعواطف ، فلقد وجد
الشافعي ، المطلبى القرشي ، الناشئ في مضارب
البادية ، وتحت سمائها الضاحية ، المغتذي ببيان
لغتها الصافية ، المتضلع من رحيق أدبها الأصيل ،

وجد ذلك الفتى العبقري الملم ، في آفاق الشعر
متنفساً لمشاعره وأحاسيسه المرهفة ، استطاع أن
يعرض في اطاره طائفة من عرائس أفكاره وأبكار
خياله وان يغرد في ظلال الحمائل الندية ألحاناً رائعة
شجية حفظت لنا كتب الأدب منها طاقة شذية برغم
عزوف الشافعي عن قول الشعر عندما نضجت ملكاته
العلمية ، وتصدر للتدريس والفتوى ونشر العلم
على أرفع مستوى . ولقد عبر عن هذا الاتجاه بقوله :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى

لكنت اليوم أشعر من لييد

على ان هذا البيت يشير الى اعتزاز الشافعي
بموهبتة الشعرية الجديدة بأن تؤهله للتفوق على
فحول الشعراء وسيمر بنا فيما نورد من نماذج
لشعره ، مزيداً من اعتزازه بشاعريته . واذا رجعنا
الى ما حفظته لنا بعض كتب الأدب من شعر الشافعي ،
نجد أن غالبية تدور في اطار الحكم والحض على
مكارم الأخلاق ومعالي الأمور ، كما نجد له مقطوعات
أخرى في أكثر أغراض الشعر التي كانت معروضة

لعهده كالغزل والفخر والعتاب والرثاء ، والشكوى
من هموم الحياة وسوء معاشرة بعض الناس ، وسنذكر
نماذج قصيرة لكل ذلك فيما يأتى ، بادئين بما نظمه
فى سمط الحكم مستهلين ذلك بقصيدته الذائعة
الشهرة التى تمثل هذا اللون من شعر الشافعى ،
والتي جرت بعض أبياتها مجرى الأمثال :

دع الأيام تفعل ما تشاء

وطب نفسك اذا حكم القضاء

ولا تجزع لحادثة الليالى

فما لحوادث الدنيا بقاء

وكن رجلاً على الأهوال جلداً

وشيمتك السامحة والعطاء

يغطفى بالسامحة كل عيب

وكم عيب يغطيهِ السخاء

ولا حزن يدوم ولا سرور

ولا عسر عليك ولا رخاء

ولا تربي الأعادى قط ذلاً

فإن شامة الأعادى بلاء

ولا ترج السامحة من بغييل
فما في النار للظمان ماء
ورزقك ليس ينقصه التاني
وليس يزييد في الرزق العناء
اذا ما كنت ذا قلب قنوع
فأنت ومالك الدنيا سواء
ومن نزلت بساحته المنايا
فلا أرض تقيبه ولا سماء
وأرض الله واسعة ولكن
اذا نزل القضاء ضاق الفضاء

ومن روائع الشعر المنسوب الى الشافعي في
الحكم قوله :

ان الذي رزق اليسار ولم يصب
حمداً ولا أجراً لغير موفق
الجـد يدني كل أمر شاسع
والجـد يفتح كل باب مغلق

واذا سمعت بأن محروماً أتى
ماء ليشربه ففاض فحقق

لو كان بالحيل الغنى لوجدتني
بنجوم أقطار السماء تعلقى

لكن من رزق الحجا حرم الغنى
ضدان مفترقان أي تفرق

وأحق خلق الله بالهم امرؤ
ذو هممة يبلى بعيش ضيق

ومن الدليل على القضاء وكونه
بؤس الليب وطيب عيش الأحق

ومن طرائف الشعر المعزو الى الشافعي ، المعرب
عن بعض طموحه وعلو همته ، وضيقه بما يعترض
طريقه الى المجد من عقبات ، المعبر عن اعتزازه
بامتلاكه لصولجان الشعر والبيان ، وانه الحائز
لدرره ويواقيته ، وصاحب تاجه واكليله ، المنوه
بخطر الشاعر وسلطان الشعر على القلوب .. قوله :

ماذا يخبر ضيف بيتك أهله
 ان سليل كيف معاده ومعاجه ؟
 أيقول جاوزت الفرات ولم أنل
 رياء لديه وقد طغت أمواجه
 ورقيت في درج العلا فتضايقت
 عما أريد شعابه وفجاجه
 ولتخبرن خصاصتي بتملق
 والماء يخبر عن قذاه زجاجه
 عندي يواقيت القريض ودره
 وعلي اكليل الكلام وتاجه
 تربى على روض السربي أزهاره
 ويرق في نادي الندى ديباجه
 والشاعر المنطيق أسود سالخ
 والشعر منه لعبابه ومجاجه
 وعداوة الشعراء داء معضل
 ولقد يهون على الكريم علاجه
 ومن أبيات الشافعي التي يعتز فيها بما منحه الله

من المعية وفصاحة لسان وشخصية فذة ، قوله وقد
سئل يوماً عن مسألة عويصة فأجاب فيها الجواب
الشافى ثم قال :

إذا المشـكـلات تصـلـدين لى

كشفت حقائقها بالنظر

لسان كشـشـقة الأرحـبى

أو كالحسام اليمانى الذكر

ولست بامتعة فى الرجا

ل ، أسائل هذا وذا ما الخبر ؟

ولكننى مدره الأصغرين ، جلاب خير وفراج شر

ومن شعره الدال على شدة اهتمامه بنشر العلم
وبذر بذوره فى التربة الصالحة لنمائه وثماره ،
وصونه عن لا يآبه به من غير أهله ، الأبيات
الآتية :

وقد أخبر الربيع بن سليمان عن الباعث عليها
بقوله : لما دخل الشافعى مصر أول قدومه إليها
جفاه الناس ، فلم يجلس إليه أحد ، فقال له بغض

من قدام معه : لو قلت شيئاً يجتمع اليك الناس ،
فقال : اليك عنى ، وانشأ يقول :

أأنثر درأ بين سارحة البهائم
وأنظم مثوراً لراعية الغنم
لعمري لئن 'ضيعت في شر بلدة
فلست مضيعاً فيهمو غرر الكلم
لئن سهل الله العزيز بلطفه
وصادقت أهلاً للعلوم وللحكم
بثت مفيداً واستفدت وداهم
والا فمكنون لىدي ومكتم
ومن منح الجهال علماً أضاعه
ومن منع المستوجهين فقد ظلم

ولئن صح ان هذه الأبيات نظمها أول قدومه
لمصر ، فقد استجاب الله دعاءه ، وسهل له في مصر
من حمل علومه وحكمه الى مشارق الأرض ومغاربها
وقد طاب له بها المقام وقضى فيها بقية حياته في
حقبة خصبة حافلة بالانتاج وأينع الثمار

ومن الأبيات التي رواها الربيع بن سليمان عن
الشافعي التي تعبر عن رأيه فيما يجب للصديق على
صديقه كما تعبر عن ألمه لفقدانه اخوان الثقة
والوفاء ، قوله :

صديق ليس ينفع يوم باس
قريب من عدو في القياس
وما يبغى الصديق بكل عصر
ولا الاخوان الا للتأسي
عمرت الدهر ملتصقا بجهدي
لضائقة فأكداه التماسي
تكرت البلاد علي حتى
كان أناسها ليسوا بناس

وعلى هذا القياس الذي اعتمده الشافعي في
تقدير حقوق الاخوة بعضهم على بعض نجده يعاتب
أحدهم عتاباً لا يخلو من قسوة ومرارة ، ونحن
ننقل عن ابن عبد البر الكلمة التي مهد بها عن
الباعث لهذا العتاب قال :

(... وفد محمد بن ادريس الشافعي على رجل
من قومه باليمن كان بها أميراً ، فأقام عنده أياماً
ثم سأله الرجوع الى داره وموضعه ، فكتب اليه
معتذراً - لعله اعتذر اليه عن تزويده بما يحتاج
اليه في سفره - وعرض عليه شيئاً يسيراً . فكتب
اليه الشافعي أبياتاً في ظهر رقعته قال فيها :

أتاني عذر منك في غير كنهه

كأنك عن برى بذاك تحيد

لسانك هش بالنوال وما أرى

يمينك ان جاد اللسان تجود

فان قلت لي بيت وسيط وسيطة

وأسلاني صدق قد مضوا وجدود

صدقت ولكن أنت خربت ما بنوا

ونال الذي يهوى لديك بعيد

تفرق عنك الأقربون لشأنهم

وأشفقت ان تبقى وأنت وحيد

وأصبت بين الحمد والذم واقفاً

فيا ليت شعري أي ذاك تريد ؟

فكتب اليه الأمير - بل أريد منك الحمد بأبي
أنت وأمي ، وقد وجهت اليك خمسمائة دينار
لنفتك وعشرة أثواب من حبرات اليمن وبختيان
والسلام) .

وهكذا استطاع الشافعي بذكائه وفصاحته ، ان
يضع هذا الأمير بين شقي الرحى بين الحمد والذم
فلم يجد الأمير بداً من تدارك غلطته وانقاذ
سمعته ، بتلبية حاجة الشافعي ، وتفادي مذمته .

واذا كان في هذه الأبيات ما يشير الى طلب
الشافعي للمال ، فانه لم يكن يطلبه لينفقه على متعه
وملذاته ، وانما كان يطلبه لقضاء ما عليه من حقوق
وواجبات وقد مر بنا الحديث عن سخائه ، انه عاد
من اليمن ومعه عشرة آلاف دينار ، فضرب له خباء
خارج مكة ولم يدخل اليها الا بعد أن فرق الدنانير
كلها . وان في البيتين التاليين لدليلاً على تلهفه على
بذل المعروف لكل من يقصده :

يا لهف نفسي على مال أفرقه

على المقلين من أهل المروءات

ان اعتذارى الى من جاء يسألني

ما ليس عندي لمن احدى المصيبات

واذا كانت نفسه ومروءته تأبيان عليه امساك
المال والاعتذار عن البذل والعطاء ، فلا غرابة في
أن يحمل على الذين يكنزون المال ، ويتباهون
بجمعه وادخاره ولا تتحرك بين جوانحهم عواطف
الشفقة والرحمة ، فيقول في ذلك :

وانطقت الدراهم بعد صمت

أناساً بعد ان كانوا سكوتا

فما عطفوا على أحد بفضل

ولا عرفوا لمكرمة بيوتا

واذا كنا لم نعثر للشافعي على شعر في المديح
فانا كذلك لم نعثر في التعمية الا على هذين البيتين :

انى أعزىك لا انى على طمع

من الخلود ولكن سنة الدين

فما المعزى ببق بعد صاحبه

ولا المعزى وان عاشا الى حين

كذلك لم نعثر على شيء في الهجاء ، وهذا هو
المتوقع من مثل الشافعي الا أن ذلك لا ينافي اظهار
الضييق والتألم من مجاورة من لا يشاركه ، أو من
معاشرة معشر جهلوا حق الأديب ، فاستوى في نظرهم
الصفير والذهب والابريز ، والمخطب وعود الطيب ،
على ما بينهما من تفاضل يدركه ألو الألباب فقال
في الأولى :

وأنزلني طول النوى دار غربة
يجاورني من ليس مثلى يشاكله
أحامقه حتى يقال سجية
ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

وقال في الحال الثانية :

أصبحت طرْحاً في معشر جهلوا
حق الأديب فباعوا الرأس بالذنب
والناس يجمعهم شمل وبينهمو
في العقل فرق وفي الآداب والحسب
كمثل ما الذهب الابريز يشركه
في لونه الصفير ، والتفضيل للذهب

والعود لو لم تطب منه روائحه

لم يفرق الناس بين العود والخطب

أما الغزل فقد جاء في طبقات الشافعية الكبرى
عن أحد أصحاب الشافعي ، انه قال له : « قد قلت
في الزهد ، فهل لك في الغزل شيء ؟ » فأنشد
الشافعي :

يا كاحل العين بعد النوم بالسهر

ما كان كحلك بالمنعوت للبصر

لو أن عيني اليك الدهر ناظرة

جاءت وفاتي ولم أشبع من النظر

سقيا لدهر مضى ما كان أطيبه

لولا التفريق والتنغيص بالسفر

ان الرسول الذي يأتي بلا عدة

مثل السحاب الذي يأتي بلا مطر

ومن الطرائف الشعرية التي رواها عن الشافعي
بعض الأدباء ، كصاحب معجم الأدباء ، وصاحب
طبقات الشافعية الكبرى وغيرهما ، الطرف الآتية :

كان لابن عبد الله الشافعي زوجة يحبها وكانت
تصد عنه فقال في ذلك :

ومن البليّة ان تعب ولا يحبك من تعب
ويصد عنك بوجهه وتلج أنت فلا تغبه
ومنها الطرفة التالية :

قال الربيع بن سليمان : « كنت عند الشافعي
اذ جاءه رجل برقعة فقرأها ووقع فيها فمضى
الرجل فتبعته الى باب المسجد ، فقلت والله لا تفوتني
فتيا الشافعي ، فأخذت الرقعة من يده فاذا فيها :

سل المفتي المكي هل في تزوار
وضمة مشتاق الفؤاد جناح
فوجدت قد وقع الشافعي :

فقلت معاذ الله ان يذهب التقى
تلاصق أكباد بهن جراح

قال الربيع : فأنكرت على الشافعي أن يفتي
لحدث بمثل هذا ، فقلت : يا أبا عبد الله ، تفتي بمثل
هذا لمثل هذا الشاب ؟ فقال لي : يا أبا محمد ، هذا

رجل هاشمي قد عرس في هذا الشهر يعني شهر
رمضان ، وهو حدث السن ، فسأل هل عليه جناح ،
ان يقبل أو يضم .. فافتيه بهذا .

ومنها الطرفة التالية :

روى ان رجلا جاءه برقعة فيها :
سل المفتي المكي من آل هاشم

اذا اشتد وجد بامرئ كيف يصنع ؟

قال : فكتب الشافعي تحته :

يداوى هـواه ثم يـكـتم وجـده

ويصـبر في كل الأـمـور ويخضع

فأخذها صاحبها وذهب بها ثم جاءه وقد كتب
تحت بيت الشافعي :

فكيف يداوى والهوى قاتل الفتى

وفي كل يوم غصـة يتجرع ؟

فكتب الشافعي رحمه الله :

فان هو لم يصـبر على ما أصابه

فليس له شـئ سـوى المـوت أنفع

م-٦ الامام الشافعي

ومن الأبيات الحكيمة المروية عن الشافعي والتي
جرت مجرى الأمثال قوله :

أحسنت ظنك بالايام اذ حسنت
ولم تغف سوء ما يأتي به القـدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها
وعند صفو الليالي يحدث الكـدر
وقوله :

ما طار طير وارتفع الا كما طار وقع
وقوله :

لا تنس في الدنيا على فائت
وعندك الاسلام والعافيه
وقوله :

أكل العقاب بقوة جيف الفـلا
وجنى الذباب الشهد وهو ضعيف

ومن المقطوعات الشعرية الرائعة المنسوبة الى
الامام الشافعي رضي الله عنه المقطوعات والأبيات
التالية وهي وان لم نستطع الجزم بصحة نسبتها كلها

اليه فان ايرادها في سياق شعر الشافعي لا يخلو من
متعة وفائدة ولا سيما ان الكثير منها جرى مجرى
الأمثال وبعضها يكاد تتواتر نسبتها اليه ويكاد
يلمس فيها القاريء روح الشافعي وهمته وطموحه :
من ذلك قوله في الحث على الارتحال في طلب المجد
والرفعة :

ما في المقام لذى علم وذى أدب
من راحة فدع الأوطان واغترب
سافر تجد عوضاً عن تفارقه
وانصب فان لذيد العيش في النصب
انى رأيت وقوف الماء يفسده
ان ساح طاب وان لم يجر لم يطب
والأسد لولا فراق الأرض ما افترست
والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو وقفت في الفلك دأمة
لمها الناس من عجم ومن عرب
والتبر كالترب ملقى في أماكنه
والعود في أرضه نوع من الخطب

فان تقرب هذا عز مطلبه
وان تغرب ذاك عز كالذهب
وقوله في علو الهمة والقناعة :
أطـرى لؤلؤا جبال سرنـديـب
ب وفيض آبار تـكـرور تبرا
أنا ان عشت لست أعدم قوتا
واذا مت لست أعدم قبراً
همتي همة الملوك ونفسي
نفس حر ترى المذلة كفرا
واذا ما قنعت بالقوت عمري
فلماذا أזור زيـدا وعمرا ؟
وقال في صيانة النفس والحث على الصبر
والتجمل :

صن النفس واحملها على ما يزينها
تعش سالما والقول فيك جميل
ولا تولين الناس الا تجملا
نبابك دهر أو جفاك خليل

وان ضاق رزق اليوم فاصبر الى غد
عسى نكبات الدهر عنك تزول
ولا خير في ود امرئ متلون
اذا الريح مالت مال حيث تميل
وما أكثر الاخوان حين تعدهم
ولكنهم في النائبات قليل

وقال في الفرج بعد الشدة :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى
ذرعاً وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها
فرجت وكننت أظنها لا تفرج

وقال في عاقبة البغي :

تحكموا فاستطالوا في تحكمهم
وعما قليل كان الأمر لم يكن
لو أنصفوا أنصفوا لكن بغوا فبغى
عليهم الدهر بالأحزان والمحن

فأصبحوا ولسان الحال ينشدهم

هذا بذاك ولا عتب على الزمن

وقال في تبرئة الزمان مما يرميه به الناس من
العيب :

نعيب زماننا والعيب فينا

وما لزماننا عيب سوانا

ونهبوا ذا الزمان بغير ذنب

ويأكل بعضنا بعضا عيانا

وقال في ذم المن والتنفير منه :

لا تحملن لمن يمين من الأنام عليك منه

واختر لنفسك حظها واصبر فان الصبر جنة

من الرجال على القلوب أشد من وقع الاسنة

وقال في الحث على تجنب الهم والثقة برحمة الله
ولطفه :

سهرت أعين ونامت عيون

لأمور تكون أو لا تكون

فادراً اللهم ما استطعت عن النفس

س فحملتك اللهم جنون

ان رباً كفأك بالأمس ما كا

ن سيكفيك في غدا ما يكون

ولعل خير ما نختم به هذا الفصل من شعر

الشافعي الأبيات الآتية وان تقدمت :

فلما قسا قلبي وضافت مذاهبي

جعلت رجائي نحو عفوك سلماً

تعاظمني ذنبي فلما قرنته

بعفوك ربي كان عفوك أعظماً

فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل

تجود وتعفو منه وتكرماً

ونحن اذ نكرر مع الشافعي رحمه الله تعالى هذه

الأبيات نسأل الله لنا وله العفو والغفران ولاخواننا

الذين سبقونا بالايمان ، وصلى الله على خير خلقه

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه . والحمد لله الذي

تتم بنعمته الصالحات .

أحمد بن محمد العربي

فهرست

صفحة

- ٢ بين يدي الكتاب
- الامام الشافعي - سيرته وعلمه
- ١٣ الامام الشافعي
- ١٥ مولد الشافعي ونشأته
- ٢١ رحلته الى المدينة
- ٢٥ رحلته الى اليمن
- ٢٦ الشافعي بين مكة وبغداد
- ٣٠ رحلته الى مصر
- ٣٤ علم الشافعي وفقهه
- ٣٦ وضع الشافعي لعلم أصول الفقه
- ٣٧ المذهب الشافعي وانتشاره

٣٩ آثار الشافعي

الشافعي المربي

٤٥ الشافعي المربي ومنهجه التربوي

٥١ أخلاق الشافعي وبعض ملامح شخصيته

٥٥ الصداقة في نظر الشافعي

الشافعي الأديب - نشره وشعره

٦١ أدب الشافعي : نشره وشعره

٦٦ شعر الشافعي

الكتاب القادم

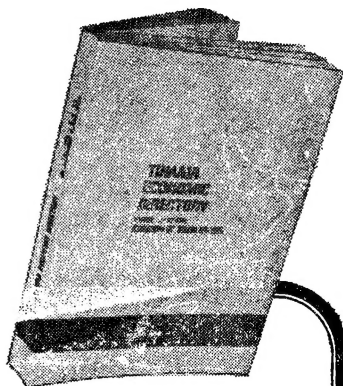
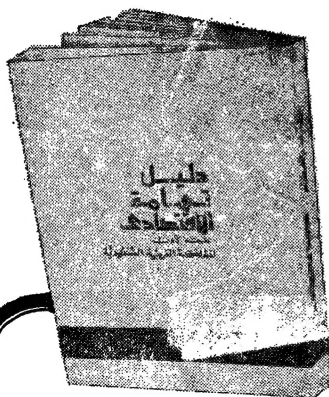


ارطاة بن سهية



بقلم

عبد العزيز الرفاعي



أول مرجع اقتصادي شامل عن المملكة العربية السعودية

أولاً فيه بالعربية والانجليزية:

- المدخل الأساسية للاقتصاد السعودي .
- أهداف ومبادئ التنمية الاقتصادية في المملكة .
- النصوص الكاملة لمؤتمرات واللوائح والقرارات المنظمة للنشاط الاقتصادي في المملكة .
- الدوائر الحكومية والمؤسسات العامة وأجهزة التمويل والاستثمار .
- المؤسسات والرياسات والشركات العاملة في مختلف الأنشطة الاقتصادية .

سبعة نسخ ٥٠ ريالاً

أطلبه من: مؤسسة تهامة للدراسات العامة والدراسات التسويقية

جدة : ميدان وزارة الخارجية - ص.ب. ٥٢٥٥ ت ٤٠٠٠٠ (خطاً)

الرياض : شارع الملك فيصل - عمارة العزيزية - ص.ب. ٤٦٨١ ت ٣٣٤٧٢ - ٣٣٩٧٩

مكة : شارع الستين - عمارة الدهلوي - ص.ب. ١٠٧٤ ت ٣٣٧٠٩ - ٣٥٠٢٣

الدمام : شارع الأمير محمد - عمارة الزامل - ص.ب. ٢٦٦٦ ت ٣٢٥٥٥ - ٢٠٤٣٤

الطائف : دار تحقيق للنشر والتأليف - شارع السداد - ص.ب. ١ - ت ٩٠٨٩١



